

سكينة بنت الحسين بين الناس ومع الله

• الأستاذ حسن البسيوني

السيدة سكينة سليلة بيت النبوة والأصل العربي العريق فوالدها الإمام الحسين سيد الشهداء وخير شباب أهل الجنة وأمها الرباب بنت امرئ القيس سيد بني كلب. ولدت رضي الله عنها سنة ٤٧ هجرية على أرجح الروايات فلم تشهد مصرع جدها الإمام علي كرم الله وجهه إذ كان قبل مولدها بسبع سنوات وكانت وفاة عمها الإمام الحسن وهي لا تزال طفلة تناهز الثالثة من عمرها فكانت في طفولتها المرحلة خلية البال عن المشاركة في آثار هاتين الفاجعتين إحساساً وإدراكاً ولكنها ما كادت تخطو نحو مرحلتَي الصبا والشباب وواكب ذلك توالى الأحداث الجسام على الأمة الإسلامية ففي سنة ٥٦ هـ نفّض معاوية بن أبي سفيان عهده مع الإمام الحسين وراح يأخذ البيعة لابنه يزيد ليتولى أمر المسلمين من بعده بعد أن مهد لذلك أعواماً طويلاً. وقد امتنع عن هذه البيعة خمسة من أعلام أهل المدينة وأصحاب الرأي فيها على رأسهم والدها الإمام الحسين وكان الموقف المدلهم يملأ قلب وعقل الإمام سبط الرسول، وكانت السيدة سكينة في تلك الآونة بجانبه دائماً تخفف عنه بمرحها وإشراقها ومضت الأحداث إلى ما قَدَّرَ الله فقد مات معاوية وبويع لابنه يزيد بالخلافة وكتب يزيد إلى عامله بالمدينة أن يأخذ البيعة قسراً ممن تخلف عنها من وجوه المسلمين وأبى الإمام الحسين أن يبايع شارب الخمر المعلن بالفسق المجاهر بالفجور - كما كان رده على الوليد بن عتبة عندما عرض عليه البيعة وهاجر الحسين بأهله إلى بيت الله الحرام بمكة عصمة لدينه وعهده ثم كان استنجد الألوفاً من أهل العراق بالإمام الشهيد وبيعتهم له وتلبيته لهم لا يثنيه عن ذلك نصيح الناصحين من قرابته قائلاً: «إني لم أخرج أشراً ولا يطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن أمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

ومضت الأمور إلى غايتها ونكت أهل العراق عن بيعتهم وتخلوا عن أمامهم ليواجه وحده في بضعة وسبعين من أهل بيته جيشاً أمويًا قوامه أربعة آلاف مقاتل ليكون قضاة الله وليروع العالم الإسلامي بمذبحة كربلاء وليرى المسلمون ولما يمض نصف قرن على لحاق رسول الله صلى الله عليه وآله بالرقيق الأعلى نضراً من المسلمين أنفسهم يقتلون الحسين سبط الرسول وأبناء فاطمة الزهراء وأبناء الإمام علي وابني عبد الله جعفر شهيد مؤته ويسبون النساء وفيهم زينب بنت الزهراء وبنات الحسن والحسين ولا يبقون من نسل أهل البيت إلا صبياً عليل هو الإمام زين العابدين.

وتشهد السيدة سكيئة أحداث المذبحة المروعة وترى رأس أبيها الحبيب يطاف بها في أحياء الكوفة كما طيف بها ضمن موكب سيدات أهل البيت في نفس الأحياء ثم في أحياء دمشق مقر الخلافة وشهدت لقاء هذا الموكب عبید الله بن زياد والخليفة يزيد بن معاوية وكانت نهاية المطاف مدينة جدها عليه الصلاة والسلام.

ثم عادت إلى الترحال مرة أخرى فصبحت عمتها السيدة زينب في خروجها إلى مصر بعد أن أحس الأمويون خطر مقامها في المدينة.

وعادت السيدة سكيئة إلى الحجاز بعد وفاة عمتها زينب فأقامت في كنف أخيها الإمام علي زين العابدين ثم تزوجت بمصعب بن الزبير وإلى العراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير ولكن الأيام لم تمهلها وجاء اليوم الذي وقفت فيه تودع زوجها مصعب وهو متأهب لقتال عن الملك بن مروان وقد خذله أهل العراق وتقدم يواجه مصيره مستبسلا ويقول لها (ما ترك أبوك يا سكيئة لابن حرة عذرا).

وفُجعت في زوجها الماجد الكريم، وترملت فترة ثم تزودت بعبد الله بن عثمان الخزاعي فأثمر زواجهما أولادها عثمان وحكيم وربيعة ولكن زوجها ما لبث أن أدركته منيته وعادت إلى الترميل مرة أخرى، وكانت زيجتها الأخيرة وقد جاوزت الأربعين من زيد بن عمر العثماني ولم يقدر لهذا الزواج أن يستمر طويلا لما رواه المؤرخون من حرص هذا الزوج على ماله.

ومضت سنوات طويلا كانت فيها السيدة سكيئة وقد جازت الخمسين من عمرها تحتل مكانة أدبية ناقدة يحتكم إليها الشعراء فتفاضل بين أشعارهم وتشتد رقابتها الأدبية عليهم إلى أن شارفت العقد الثامن من عمرها فانتقلت إلى جوار ربها راضية مرضية.

وقد تعددت أقوال الرواة والمؤرخين بشأن السيدة سكيئة فقد اختلفوا في تاريخ مولدها وتاريخ وفاتها وفي قبرها، فمن قائل أنها دفنت بالقاهرة وآخر يقول أنها دفنت بالقيع، واضطربت أقوالهم بشأن أزواجها فمنهم من يقصرهم على اثنتين والبعض يقول ثلاثة وآخرون يذهبون إلى أن عددهم سبعة، ويخوضون في مجالس الشعراء لديها، فمن قائل أنهم كانوا يحتكمون إليها وراء حجاب ومن مجترئ إلى القول بأنها كانت تجالسهم وتأذن للناس فيجالسونها في مجالس الغناء والطرب ثم يشطح بهم الخيال الأثيم إلى القول بأن السيدة كانت مقبلة على الدنيا وعلى حياة البذخ والترف.

زيجاتها:

أما عن زواجها فالثابت والمتواتر من الرواة الثقات أن السيدة سكيئة لم تتزوج إلا زيجات ثلاث وكلهم من أعرق الأسر العربية ديانة وشرف محتد فقد تزوجت من مصعب بن الزبير الذي مدحه عبید الله بن قيس الرقيات قائلا:

تجلت عن وجهه الظلماء

إنما مصعب شهاب من الله

وتطلع خصمه عبد الملك بن مروان إلى رأسه إذ حمل إليه بعد مصرعه فقال: متى تقدر قريش مثلك؟

ولما قتل زوجها في ساحة الحرب الحزامي وهو حفيد الزبير بن العوام وسليل آل خويلد بيت خديجة أم المؤمنين فأنجبت منه أولادها، فلما تزوجت من بعده عبد الله بن عثمان لحقته المنية تزوجت من بعده زيد بن عمر العثماني حفيد عثمان بن عفان.

ولما عرف عن هذا الزوج الأخير من الحرص ولعدم وفائه بشروط لها كان قد شرطها على نفسه تم طلاقها منه ولم تتزوج أحدا من بعده.

وتعددت الزيجات في حد ذاته ليس محل غرابة أو انكار في البيئة العربية إذا ذاك، بل كان هذا هو العرف المتبع كلما ترملت سيدة من أصل كريم أسرع إليها الخطاب حرصا على شرف المصاهرة وكل ما كان واجبا مراعاته هو الحرص على التكافؤ في كل زواج تحقيق بالنسبة للسيدة سكيئة.

مجالس الشعراء

أما ما قيل عن مجالس الشعر بدارها فيكفي لتيان صورتها الحقيقية أن نسوق واقعة وردت في كتاب الأغاني نقلا عن محمد بن سلام وعمر بن شبة أن جريرا والفرزدق وكثيرا وجميلا ونصيبا اجتمعوا في ضيافة السيدة سكيئة فمكثوا أياما ثم أذنت لهم فدخلوا عليها فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم وكان حديثها من خلال وصيفة لها تخرج إليه لتسمعهم نقد سيدتها لأشعارهم ثم تحمل لكل عطاء الذي أمرت به السيدة: فهل لم تجالس الشعراء وتحادثهم مباشرة كما يزعم المجترؤون بل كانت تستمع إليهم من خلال وراء حجاب ويسمعون ردها من خلال أمانها.

ولا يقبل عقلا ولا منطقا أن تكون الصورة غير هذه من حفيدة الرسول وفي ظل بيئة متمسكة بأهداف الدين الحنيف يعايشها فيها أخوها الإمام علي زين العابدين ووجوه بني هاشم وهم الذين ذكر الرواة أنهم غضبوا لمجرد أن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف تقدم لخطبتها وهو ليس كفؤا لها، فكيف يسكت أهل البيت عما زعمه بعض الرواة من أن بيت السيدة كان محلا لمجالس الغناء والطرب دون أن يمنعوها ذلك.

بل كيف يقبل هذا الزعم والسيدة لم تأخذ دورها في النقد الأدبي ألا وهي تجتاز الحلقة الخامسة من عمرها فهل يقبل هذا السن الوقور أمثال هذه المجالس.

وأخيرا كيف يعقل حدوث ذلك والمآسي تحيط بالبيت الكريم وبيئة أهل المدينة، إذ ما كادت مأساة كربلاء تمضي بها السنون حتى كانت ثورة أهل المدينة على بني أمية واستباحة قائد جيش يزيد لدماء أولاد المهاجرين والأنصار، ثم الصراع بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان، فهل كانت هذه الأحداث الجسام تترك لأهل المدينة والسيدة الكريمة سبيلا لمجالس طرب وغناء، إن لم يمنعه الاعتداء بكرم الأصل والشرف الرفيع.

إن السيدة سكينه بكرم محتدها ووقار سنه ودفقة حسها وشعورها وتمكنها من أسرار العربية لغة كتاب الله الحكيم دان لها فطاحل الشعراء بإمامة النقد في عصرها، وليس هذا بمنقص من قدرها، بل إن لها في هذا المجال فضلاً يعرف فلا ينكر، وليس هذا بمستغرب على سليله بني هاشم فقد سارت على درب جدّها الإمام علي الذي ملك البيان والبلاغة وأبيها الإمام الحسين الذي قال معاوية بن أبي سفيان عندها طالع ردا له وجهه إليه: إنه لسان بني هاشم الذي يفلق الحجر.

قلب ممزق:

ولكن لب الحديث عن السيدة سكينه ليس أمر زواجها من هذا أو ذاك من أمّاجد قریش، وليس أمر نقد أدبي أو شعري، فكل هذه تصرفات ظاهرية لا تنفذ إلى أغوار النفس العالية لتكشفان حقيقة شخصية حفيده الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتريث أمام وقائع التاريخ الثابتة، وأعمال حكم المنطق والعقل فيها.

لقد واجهت السيدة سكينه في حياتها من المآسي والمحن ما ينوء القلب عن احتماله، فقد شبت وبيت أيها الحسين يلغه الحزن بفاجعة مقتل جدّها الإمام علي ثم وفاة عمها الحسن، ووقفت بجانب أبيها وهو يرفض مبايعة يزيد بن معاوية وصحبته إلى معركة الشهادة في كربلاء وشهدت بعيني رأسها وهي لا تزال في ميعة الصبا مصارع أهل الإمام الحسين وأخوتها وسائر نسل جدتها فاطمة الزهراء وجدّها الإمام علي، رأتهن تحزرن رؤوسهم ويسلبون ويتركون متجردين بالعراء، واقتدت مع سيدات أهل البيت في موكب الأسرى ليطاف بهم في الكوفة ودمشق كما طيف برأس أبيها الحبيب، وهكذا استقبلت شبابها بمشهد المذبحة المروعة، مذبحة الأب والأخ وابن العم وابن العمّة والتمثيل بهم، فهل يعقل أن تغيب هذه الصورة عن عينها أو تندمل جراحها في قلبها؟

وتزوجت بمصعب بن الزبير، زوج ماجد كريم أكنت له الحب، فإذا بها تفضع فيه ويأتي اليوم الذي تقف فيه مودعة إياه الوداع الأخير وهو متأهب للقتال وقد تخلّى عنه الجند والأعوان ليلقى مصرعه وتجرعها الأيام مرارة الترمل وهي بعد شابة بعد أن ذاقت من قبل مرارة اليتيم.

وتزوجت بعبد الله بن عثمان الحزامي ورزقت منه أولاداً، ولكن الزمن لم يمهلها لتتعم بحياة عائية مستقرة إذ توفي زوجها وعادت للترمل مرة أخرى.

هذا القلب الكبير الذي تجرع مرارة الفواجع وكان يخرج من محنة لتسلمه الأيام لمحنة أخرى هل يترك الحزن فيه محلاً لفرح أو مرح وقد أثخنه الجراح.

فالقلب المكلوم لا يتصور أن يجمع بين الحزن والفرح في وقت واحد، والمآسي التي مرت لا تقبل النسيان، وقد حدثنا التاريخ عن سيدات هدتهن الفجيعة فاستسلمن للحزن والبكاء فالخنساء ظلت تبكي أختها صخرًا وترثيه بأشعارها السنوات الطوال، بل والرياب أم السيدة سكينه ظلت على حزنها على زوجها الإمام الحسين إلى أن أدركتها المنية.

وهو أمر يتمشى مع طبيعة الشخص العادي، إذ أن الحزين إذا أطلق لدموعه العنان قد يجد في ذلك تخفيفاً وتفرجاً عما يضيق به صدره.

ستار من المرح:

ولكن السيدة سكينه كانت من نسج فريد، فرغم هذه المآسي الجسام كانت لا يفارقها مرحها وإشراقها، وكان والدها الإمام الشهيد يجد في ابتسامتها ووجها ما يخفف عنه ما يعانیه من هموم كبار، وقد عبر رضوان الله عليه عن هذا الإحساس فقال:

لعمري أنني لأحب داراً تضيفها سكينه والرياب
أحبهما وأبذل كل مالي وليس بعاتب عندي عتاب

وكانت خلال الخطوب التي مرت لا تفارقها رباطة جأشها ولا مرحها ومحاولتها التسرية عن والدها وتبديد غيوم الهموم والأحزان التي كانت تخيم على أفراد القافلة الصغيرة الكريمة من أبناء بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كربلاء، لم تتخل عن ذلك إلا مرة واحدة في لحظة يعجز فيها البشر عن الاحتمال عندما خاطبها والدها هي وعماتها موصياً ألا يشققن عليه جيباً ولا يخمشن وجهاً ولا يقلن هجراً.

عندئذ تمرقت أستار التجلد التي كانت تتمسك بها فانخرطت في بكاء مرير قطعه قول الإمام (سيطوّل بعدي عنك يا سكينه فهلا ادخرت البكاء لغد وما غد ببعيد) ..

وتزوجت بعد استشهاد والدها فإذا بها تطوي أحزانها على عتبة الزوجية وتستعيد مرحها وبشرها، لا تفارقها هذه الروح إلا في لحظة فراق الزوج الحبيب فقد ذكرتها بلحظة فراق الأب الحبيب، فتكشف عن مكنون قلبها وتهتف: واحزناء عليك يا مصعب فيلتفت إليها وقد عرته الدهشة أو كل هذا لي في قلبك، فتجيبه: أي والله وما كنت أخفي أكثر.

وتمضي الأحداث بها وهي والروح رفيقان لا يفترقان، تشيع السرور والأنس حولها فما سمعت يوماً شاكية ولا باكية.

فهل يقبل العقل والمنطق بكل المقاييس والموازين أن يكون هذا المرح صادراً حقيقة من أعماق هذا القلب الدامي؟

إن المرء ليس له إلا قلب واحد في جوفه وهذا القلب قد مزقته الأحزان، فليس للمرح مكان فيه، إذن فهذا المرح لا يمكن أن يكون تعبيراً عن القلب، وإنما هو ممتاز تسدله على مكنون نفسها، لتحبس حزنها وتكتمه دفينا في قلبها ثم تتكلف هذا المرح مشيعة البهجة في كل من حولها، فأية إرادة قوية وجهد ساق بذلته السيدة الكريمة لتحمل نفسها فوق آلامها عبء التخفيف عن حوّلها والتسرية عنهم، ثغر ضاحك وقلب باك فأَي ثقل مضاعف تحملته النفس الكبيرة إنه لا يقوى عليه إلا من أعانه الله.

حقيقة الإخلاص:

وإذا انتهينا إلى أن ما امتحنتها به الأيام لا يد وأن يثقل قلبها بالهموم فلا يجعل مرحها إلا ستارا يخفي ما تحته من أخزان، فإننا نضيف إلى هذه النتيجة المنطقية واقعتين ثابتتين في

سجلات المؤرخين، فقد تقدم الحسن المثنى إلى عمه الإمام الحسين خاطبا فاختار له ابنته السيدة فاطمة النبوية واردف: وأما سكينه فغالب عليها الاستغراق مع الله فلا تصلح لرجل.

وإذ يقول الإمام الحسين ذلك فإنه أمر واجب التصديق والتسليم.

والواقعة الثانية أن السيدة سكينه رؤيت وهي ترمي الجمار أثناء الحج فسقطت الحصاة السابعة من يدها فلم تتردد في خلع خاتم ثمين من أصبعها لترمي به بدل الحصاة.

ومن خلال هذه الوقائع تستبين حقيقة السيدة الكريمة.. فظاهرها سيدة مرحلة مشرقة تزوجت وعاشت حياتها واشتغلت بالنقد الأدبي والشعري، أما الباطن فسيدة أحببت الرزق قليلا وأحبت العبادة كثيرا، فهي منصرفة عن الدنيا مهينة للمال ترمي بخاتمها الثمين دون تردد لتستكمل شعائر دينها، وتمضي في تصرفاتها في الدنيا تنفذ ما يوجبها عليها دينها، فتقبل على الزواج وقلبها متفطر بفاجعة كربلاء لتستكمل نصف دينها، فإذا ما تزوجت أعطت لزوجها ما فرضه الشرع فلم تحمله آلام محنتها بل طوت أحزانها وكتمتها لتوفر العلاقة الزوجية بشرها ومرحها، وتزوج مرة أخرى بعد أن ترملت وهي بعد شابة استكمالا لذات الواجب الديني، وترزق أولادا فتؤدي واجب الأمومة ورعاية الأسرة، فكل ما تخيله الناس متعة دنيوية لها كانت تؤديه تحقيقا لنا فرضه الدين الحنيف وأوجبها عليها، لا يمنعها عن ذلك ألم دفين وجرح عميق.

ثم هي بعد ذلك مستغرقة في الله، لا تطلع أحدا على عبادتها إياه، فلا يستبين انصرافها للعبادة إلا من خلال رد أبيها لأحد خطابها.

ولعل هذا يتضح منه التفسير الصحيح لمرحها الظاهر أنها تكتم آلامها فلا تشكو لأحد من العباد وتجعلها مناجاة بينها وبين ربها مرددة ما ذكره المولى عز وجل على لسان يعقوب عليه السلام: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله..

ولقد قيل في الإخلاص في العبادة: أنه ما استتر عن الخلائق وصفا من العلائق. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يقول الله تعالى الإخلاص سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي).

أليس خلق السيدة سكينه هو حقيقة الإخلاص، ألم تستتر عبادتها عن الخلائق فلم تظهر لهم إلا مرحها، فصفا إخلاصها من العلائق الدنيوية فسمت بروحها إلى حقيقة الإخلاص، ولا عجب في ذلك فهي حفيذة رسول الله وبنيت خير شباب أهل الجنة.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.